منحنى التغيير الحضاري من خلال تجربة الدولة الموحدية

الدكتور:بيشي محمد عبد الحليم
كلية العلوم الإسلامية، قسم العقائد والأديان.
المؤسسة جامعة الجزائر 1.

تمهيد: مرت الحضارة الإسلامية بمراحل عدة تتراوح بين الشموخ والانتكاس ومن الضروري لأهل العلم – كل في مجال اختصاصه – الوقوف أمام منحنى التغيرات الحضارية الكبرى التي مرت بها الحضارة الإسلامية لجعل الظاهرة الحضارية – وهي ظاهرة شديدة التعقيد والسعة – في متناول وعي الأمة لتتحول من أمة منفعلة بالفعل الحضاري إلى أمة فاعلة فيه.

والمحضن الطبيعي لملاحظة التغيرات المذكورة وتسجيل القواعد – الأسباب والنتائج – المتحكمة بها ومن ثم تكوين الوعي الإيجابي حول الظاهرة الحضارية وتمكين المسلمين من تحصيل القدرة على مغالبة قدر بقدر وليس الاستسلام للأقدار هو التاريخ: لا من جهة كونه مجموعة أحداث بل من جهة ما يفصح عنه من قواعد وسنن..

من هذا المنطلق اخترنا أنموذجا تاريخيا نرصد من خلاله هذا المنحنى هو تجربة الدولة الموحدية، وسبب الاختيار هو كونها تجربة في المغرب الإسلامي والدراسات في شأنها – لا سيما من الزاوية الحضارية – ما تزال في حاجة إلى بحوث جادة مبدعة . وكذا كون الدولة الموحدية هي الدولة التي استطاعت توحيد المغرب والأندلس، وعبرت عن بقايا روح الإنسان المسلم الطليعي المتحضر قبل أن يخفت صوت العقل وتخبو هذه الروح تاركة المجال لإنسان منحل حضاريا أو إنسان ما بعد الموحدين – بتعبير الأستاذ مالك بن نبي – تحكمه الغريزة والأمراض النفس–اجتماعية.

إذن ما هي خلاصة التجربة الموحدية وما هي إسهاماتها ؟ وما هو موقعها في جسد الحضارة الإسلامية ؟ وما أسباب انتصارها وما أسباب انتهائها ؟ وماذا بقي منها لنحصله منها نغذي به الوعي الحضاري لدينا أو نستحضره في الفعل الحضاري المعاصر؟ هذه هي الخلاصة الفكرية لمداخلتي ، والتي ستعتمد المصادر الأصلية بدراسة تحليلية و المراجع والدراسات التي انكبت على تحليل الريادة الموحدية في القرون السالفة حيث يؤرخ لسقوط الحضارة شرقا باحتلال بغداد على يد التتارسنة (656هـ)[1]، وشرقا بسقوط الموحدين سنة (668هـ) إيذانا ببدء دورة تاريخية جديدة شهد عليها ابن خلدون بأنها مرحلة انتهاء وخمول العالم .

وسنقسم الورقة إلى الآتي:

[1] –في سقوط بغداد انظر ابن كثير أبو الفدا: البداية والنهاية،ط6،بيروت،دار المعارف،1986.ج13ص200/ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي الديني الثقافي الاجتماعي.ط15،بيروت،دار الجيل. مصر، دار النهضة.2001.ج4ص147.

أولا: توطئة تاريخية:

على فترة من ترهل المشروع المرابطي وضعف الدولة المرابطية[1] انبعثت تجربة إصلاحية سياسية قوامها الدعوة الدينية للمهدي محمد بن تومرت في جبال الصامدة بالمغرب الأقصى والتي استطاعت أن تحدث الجديد وتنشأ الغريب في دولة واحدة جمعت شأن المغارب الثلاثة الأقصى، الأوسط، والأدنى، مع العدوة الأندلسية، ودامت هذه الدولة التي نجحت فيما عجز عنه السابقون وأعيا من بعده اللاحقين قرابة القرن والنصف، وخلفت آثار عديدة على مستوى الإنسان والتاريخ والحضارة .حتى اعتبرها المفكر الجزائري فيصلا في الخط البياني للحضارة الإسلامية فيما سماه بعالم ما بعد الموحدين[2] الذي شهد التمزق والتشرذم والانسحاب من صناعة الحضارة وصياغة التاريخ.

ولد المشروع الموحدي سياسيا مع المهدي بن تومرت (524هـ) واكتمل ثقافيا مع عبد المومن بن علي وخلفائه الأوائل، أبي يعقوب يوسف ويعقوب المنصور، والناصر.

ويمكننا أن نرصد المحطات التاريخية الهامة لهذه الدولة الواسعة فيما يأتي:

1: مرحلة التنظير والتفكير: وهي تشمل فترة حياة المهدي بن تومرت (485-524 هـ)[3] الذي انطلق إلى المشرق بعدما أخذ حظا من العلوم في بلاد السوس ثم قرطبة. فأقام خمسة عشر سنة بالمشرق دارسا على كبار أئمة كالكياهراسي(507هـ) والغزالي أبي حامد(505هـ)، والطرطوشي المالكي(521هـ)[4]،وتنقل في مدن المشرق مكة ودمشق وبغداد، وشهد انتقاص دولة خلافتي بني العباس بالعراق والفاطمية بمصر، وعاين طلائع الصليبيين في بلاد الشام.

وبعد هذه الرحلة عاد إلى المغرب، شهابا واريا من الدين وبحرا متفجرا من العلم[5]، وحل بمدن المغرب طرابلس فالهدية فقسنطينة وبجاية ثم تلمسان وفاس ومراكش مبشرا بمبادئه الإصلاحية القائمة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونبذ التقليد. والدعوة إلى التناصف والعدل، والنكير على المساوئ الأخلاقية والأعراف البربرية المخالفة للشريعة[6].

---

[1] -في الدولة المرابطية انظر: السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى.ط2،بيروت،دار الكتب العلمية، 2010. ج4، ص117/ محمد عبد الله عنان: عصر المرابطين والموحدين.ط1،القاهرة،1964.

[2] -مالك بن نبي:شروط النهضة.(ت عبد الصبور شاهين) بيروت، دار الفكر،1985.ص66.

[3] -في ترجمة ابن تومرت انظر: البيدق: أخبار المهدي ابن تومرت(ت عبد الحميد حاجيات)اط2،لجزائر،المؤسسة الوطنية للكتاب،1986.ص29-65/ ابن خلدون عبد الرحمان :تاريخ ابن خلدون،ط،1،بيروت،دار الكتب العلمية،1992.ج6ص266/ابن القطان: نظم الجمان في أخبار الزمان(ت محمد علي مكي)الرباط، منشورات جامعة محمد الخامس.ص34/ ابن خلكان أبو العباس شمس الدين: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان .1،بيروت،دار الكتب العلمية،1998.ج4ص297/ ابن العماد الحنبلي :شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د- ت.ج4ص70/السبكي: طبقات الشافعية الكبرى.ط2،بيروت،دار المعرفة.ج4ص71.

[4] -انظر: عبد المجيد النجار: المهدي بن تومرت.ط1،بيروت،دار الغرب الإسلامي،1982.ص69.

[5] - ابن خلدون عبد الرحمان :تاريخ ابن خلدون.ج6ص267.

[6] - عبد المجيد النجار: فصول في الفكر الإسلامي بالمغرب.ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي،1992.ص69.

وعندما لم يستجب له أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين زعيم الدولة المرابطية، الذي حشر له علماء الدولة لمناظرته ولكنهم هزموا أمامه لافتقارهم أساليب الجدل والكلام التي برع فيها ابن تومرت من المشرق[1]، رحل إلى جبال المصامدة بالأطلس الكبير أين أعلن بدعوته سنة(514هـ) ثم بويع إماما للموحدين، ومن جبال تينمل سير جيوشه لحرب المرابطين والتي كانت سجالا حتى توفي سنة(524هـ).بعدما ترك دعوة قوية البنيان بما سطره يراعه من كتب ورسائل [2]حددت للموحدين طرائقهم في الدين والحياة.

2- مرحلة التأسيس:

وهي المرحلة التي استغرقت حياة خليفة ابن تومرت عبد المومن بن علي الكومي الندرومي، التلميذ الأبرز الذي كان عازما على الارتحال للمشرق لتلقي العلم حتى وافى ابن تومرت بقرية ملالة ببجاية، فعاد معه ملازما وصار لعلمه وارثا، وعندما توفي ابن تومرت انتخبه أشياخ الموحدين أميرا عليهم في أول بادرة تاريخية لاضمحلال العصبية القبلية، إذ يتولى كومي على مجموع المصامدة، وذلك سنة(524 هـ)[3].

بدأ عبد المومن حياته السياسية بتنظيم الموحدين وقيادة مشروع إزالة دولة المرابطين، فبعد هزيمة البحيرة أمامهم سنة(521 هـ)غير الإستراتيجية بتطويق الدولة عن طريق انتزاع أطرافها، فاستولى على مدن الأطلس وقراه، ومنها اتجه إلى تلمسان ففتحها سنة 539 هـ، ثم وهران أين قضى على أمير الموحدين تاشفين بن علي ثم انعطف إلى فاس، وأخيرا أسقط مراكش العاصمة السياسية للمرابطين سنة(541هـ)[4]،وهو الذي وضع أغلب أسس الدولة الإدارية والاقتصادية[5]،ويكفيه أنه أول شخص وحد المغرب كله مع الأندلس في فترة تاريخية وجيزة، وكانت أيامه نماء وازدهارا، حيث طال حكمه ثلاثا وثلاثين سنة.

3: مرحلة الظهور والتمكين:

وهي تشمل أيام الخلفاء الكبار يوسف بن يعقوب بن عبد المومن (558-580هـ) الذي كان مثال الفيلسوف ورئيس المدينة الفاضلة، وشهد المغرب والأندلس نهضة لم يسبق لها مثيل في الاقتصاد والعلوم والفنون والعمارة، إذ تعود إليه أغلب العمائر الموحدية.

---

[1] -انظر ابن أبي زرع الفاسي: الأنيس المطرب بروض القرطاس .(ت عبد الوهاب بنمنصور) ط2،الرباط،المطبعة الملكية، 1999. ص222.

[2] -انظر مثلا كتاب: أعز ما يطلب(ت عمار طالبي) الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب،1985.ص7.

[3] -في ترجمة عبد المؤمن انظر: المراكشي عبد الواحد: المعجب في تلخيص أخبار المغرب(ت صلاح الدين الهواري)ط1،صيدا،المكتبة العصرية،2006.ص148/ الذهبي شمس الدين: سير أعلام النبلاء(اعتناء محمد بن عيادي بن عبد الحليم).ط1،القاهرة ،مكتبة الصفا،2003. ج12ص202/ ابن أبي زرع : ابروض القرطاس.ص267.

[4] - ابن عذرى :البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب،(ت ج.س كولان وليفي بروفنسال -3أجزاء- وعبد الله محمد علي-جزء4- جزء4- .بيروت،دار الكتب العلمية،2009. ج4ص ص105.

[5] -عبد الله علام: الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي. الجزائر، طباعة الجيش،2007.ص223

ثم واسطة العقد الخليفة يعقوب المنصور (580-595هـ) أهم الخلفاء الموحدين على الإطلاق لم يترك المؤرخون الموالون والمعادون منقبة إلا نسبوها إليه، إذ كانت سني حكمه أزهى السنوات، وفيها كانت واقعة الأراك(591هـ)[1] ضد الصليبيين.

ثم خلفه ابنه محمد الناصر (595-610) وهو خاتمة مرحلة القوة، إذ تعرضت الدولة لهزات تمرد بني غانية في البحر المتوسط والمغرب الأوسط[2]، وفي آخر أيامه كانت هزيمة العقاب المشئومة مع الأسبان (609هـ).

4: مرحلة التراجع والانهيار:

وقد امتدت من سنة (620 هـ) تاريخ وفاة يوسف المنتصر حتى سقوط الخلافة سنة(668 هـ)[3] على يد بني مرين وتعاور فيها خلفاء كثيرون (8خلفاء في أربعين سنة) وكثرت بينهم النزاعات والصراعات وتدخلات القبائل، وانصرمت أجهزة الدولة وانتفضت أطرافها من الخارجين والمتمردين حتى كان الانهيار الكلي بضربات الزيانيين وبني مرين.

ثانيا: معالم التجديد الحضاري الموحدي:

الحديث عن التجديد الحضاري يقتضي سلفا الكلام عن الموروث السابق للتجربة الموحدية، وهو الحصيلة الحضارية للغرب الإسلامي بعدوتيه. بما فيها من حصائل سلبية وإيجابية في المناحي السياسية والثقافية والاجتماعية، وهو تقييم لمسار التاريخ في المغرب الإسلامي لمدة أربعة قرون كاملة، أي من استتاب الفتح الإسلامي وإصفاق البربر على الإسلام بعد فترة حسان بن النعمان وموسى بن نصير[4].

لقد تعاقبت على المغرب الإسلامي دول عديدة، اختلفت دواعي نشوئها بين المرتكزة على العصائب القبلية مصل الدولتين الزيرية بإفريقية، والحمادية بالجزائر أو بني أمية بالأندلس، والتي اتخذت من الدعوات المذهبية تكئة لها مثل دول الخوارج كإباضية الجزائر الرستميين بتيهرت، أو الصفريين المدرارين بسجلماسة، أو الشيعة الزيديين (الأدارسة بفاس)، أو الاسماعيليين الفاطميين بإفريقية والمغرب الأوسط، ولكن أيا منها لم تترك أثرا جسيما باستثناء الدولة المرابطية التي قامت على أنقاضها الدولة الموحدية.

ومن الغرابة أن كلتا الدولتين قامتا على حركة إصلاحية تصحيحية للأوضاع الماثلة في المغرب الأندلس، وكلتاهما حملتا هم توحيد المغارب الثلاثة والأندلس، وقد نجحت الموحدية في مقابل قصور المرابطية عن تحقيق ذلك الهدف.

فما هو الجديد وما هي معالم التجديد والإضافة القيمية التي جاء بها المشروع الموحدي؟

يمكننا الولوج إلى فهم الإضافات القيمية والإسهامات الحضارية للموحدين بفهم مآلات الأوضاع عند المرابطين، تلك الأخيرة التي أسهم نقدها من طرف المهدي بن تومرت في قبول دعوته بين قطاعات عديدة من المغاربة، والتي

---

[1] -انظر ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس ص289.

[2] - ابن خلدون عبد الرحمان :تاريخ ابن خلدون ج6ص292.

[3] - العروي عبد الله: مجمل تاريخ المغرب.ط1،الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي،1994.ص176.

[4] - لقبال موسى: المغرب الإسلامي منذ بناء معسكر القرن حتى انتهاء ثورات الخوارج. الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،1981.ص74.

جعلت عديد النخب العلمية تقبل على مناصرة الدعوة الموحدية، بل والانخراط في مؤسساتها، بعدما عجزت اللواحق المرابطية الفقهية في صد الرؤية الموحدية الجديدة في مضمونها ورؤيتها للمشروع الثقافي الجديد والذي كان ثورة وقطيعة مع الموروث المغاربي في علوم الفقه والعقائد والسياسة والفلسفة الاجتماعية التي نشأت عليها دولة المرابطين.

1/ الرؤية السياسية:

على الرغم من قيام الدولة المرابطية على أسس دينية بحتة[1] في مسألة السياسة التي ارتهنت إلى مقالات الإمام المرادي [2] ، وعلى الرغم من النشأة الثورية الأولى، وتعدد مراكز القرار وتحول السلطة بين أفراد عديدين إلا أن لعنة الوراثة والارتهان إلى عصبية واحدة (صنهاجة الصحراء) ستجعل من المؤسسات الحاكمة رهينة الصراعات الداخلية.

وعندما عاد المهدي بن تومرت من رحلته المشرقية الطويلة التي شاهد فيها انهيار الدول الإسلامية وتكالب الصليبين على بلاد الشام وتشرذم دويلات المغرب (الزيرية، الحمادية، المرابطية) قدم رؤية سياسية جديدة قوامها مشروع إصلاحي يتغيا وحدة الأمة وارتباطها بالأصول الشرعية وانتهاجها لديناميكية اجتماعية قائمة على التغيير الدائم والفعال كما هي مقتضيات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولتحقيق تلك الأهداف السالفة في بيئته متأخرة ثقافيا عن مثيلاتها، أي في جبال المصامدة فقد عمد محمد بن تومرت إلى استعمال سلاح المهدية الذي تعتقده طوائف السنة والشيعة على السواء، فقام بالتبشير لهذا المبدأ وحشد الأدلة له ليتسنى له أخيرا استلام قياد القبائل الجبلية لتنخرط في مشروعه السياسي الإصلاحي الجديد، ويمكن لن نلخص معالم الرؤية السياسية في الآتي:

ا/ الثورة على الأوضاع السقيمة:

وهي القضية التي تعد عمود الفعل السياسي عند الموحدين وعند منظرهم محمد بن تومرت، إذ أن الثورة ضرورة شرعية تمليها مقررات الشرع الذي لا يرضى بالظلم والحيف عن الشريعة، وقد استلهم ابن تومرت آراءه في وجوب الثورة على ما يراه انحرافا عن جادة الشريعة من الموروث السني الحافل بتلك الرؤى، خاصة وأنه تتلمذ على أبي بكر الطرطوشي نزيل الاسكندرية (ت521)[3] صاحب كتاب " سراج الملوك"

كما أن التجربة المرابطية كانت ملهمة له في هذا المجال، وهي التي توجت أعمالها بإنهاء عهد ملوك الطوائف الأول في الأندلس والتي عادت سيرتها الأولى في أخريات حكم المرابطين الذين ضعف أمرهم إلى ما يعرف بعهد الطوائف الثاني

---

[1] –محمد الأمين بلغيث: دولة المرابطين بالأندلس من مدينة السياسية إلى مدينة العلم.ط1،الجزائر،دار الوعي،2009.ص16.

[2] –انظر: محمد الأمين بلغيث: النظرية السياسية عند المرادي وأثرها في المغرب والأندلس. الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1989. ص49.

[3] – المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب (ت يوسف الشيخ محمد البقاعي) ط1، بيروت، دار الفكر،1998. ج ج2ص245/وفيات الأعيان ج4ص92.

حيث تشرذمت البلاد من جديد، وقامت فيها الثورات من قبل المتصوفة كثورة المريدين، ومن قبل القضاة كابن حمدين في قرطبة[1]، ومن قبل المتزعمين المحليين من بقايا ملوك الطوائف أمثال بني هود في سرقسطة البيضاء.

كما أن التجارب السابقة لخوارج المغرب اباضية طرابلس ثم تيهرت الذين نجحوا في إقامة الدولة الرستمية [2]عقب الثورات المتكررة منذ عهد ولاة الأمويين في إفريقية، وكذا الصفرية الذين نجحوا في إقامة الدولة المدرارية بسجلماسة قرب السوس حيث نشأ ابن تومرت.

والملاحظ أن المدونات الفقهية المتداولة حتى القرن الخامس عند المالكية لم تكن مواقفها حازمة تجاه الخروج السياسي إذا ما قورنت بالمدونات التي بعدها والتي لم تعن كثيرا بالسياسة الشرعية، وشاهدنا أن موطأ مالك لم ترد فيه أحاديث صريحة في موضوع الخروج على الحكام وكذلك مدونة سحنون. وكان موقف الإمام مالك هو الرفض لقضية الخروج لأجل الفتنة وطلب السلطة، وشاعت عبارته: دعهم ينتقم الله من ظالم بظالم. ولكن ذلك لا ينفي مؤازرته أو سكوته عند خروج النفس الزكية وأخيه إبراهيم ضد المنصور العباسي، وبسبب ذلك كانت محنته في موضوع عدم لزوم إيمان الإكراه[3].

ولكن الدافع المهم في نظرية المهدي بن تومرت كان حجة الإسلام أبا حامد الغزالي –الذي يعتبره البعض حليف الإنهزامية والانسحاب من المعترك السياسي–الذي جعل من ركن الحبسة أي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر القطب الأعظم في الدين، وهو في هذا يتقاطع مع الأصل الخامس للمعتزلة . إلا أنه قيده بشروط كثيرة تعيق تنزيله واقعا، ولكنه فتح باب الشرعية للقادرين عليه فيما ذكره في المرتبة الثامنة في قوله:" كل من قدر على دفع منكر فله أن يدفع ذلك بيده وبسلاحه وبنفسه وبأعوانه"[4] فهذه جملة مؤثرات بناء المشروع الثوري السياسي للمهدي بن تومرت.

ب/ استغلال قضية المهدية:

تعتبر قضية المهدية أو المخلص الذي يرفع الجور عن المظلومين موضوعا شائكا عن أهل السنة والجماعة والشيعة وبغض النظر عن النقد الموجه للأحاديث الواردة في المسألة، وهي نقود ذات اعتبار في علم الحديث.

إلا أن شيوع القضية وذيوعها في الفكر المغربي آمر جدير بالانتباه، فلكثرة الدول المتعاقبة وما يستلزم ذلك من حروب ومجاعات وفواجع لا تنتهي جعلت عديد الأشخاص يركبون عقيدة المهدية لتحقيق مآربهم، ولا يعدم أن يكون بن تومرت قد استغل القضية[5]، والخلاف في صدقه بعيد المنال، إذ أن هناك نشازا بين منهجية العقلي الصارم في الأصول وبين قوله بالمهدية والعصمة، والشواهد على كثرة أدعياء المهدية عديدة منها:

---

[1] – دنش عصمت عبد اللطيف: الأندلس في نهاية المرابطين وستهل الموحدين.ط1،بيروت،دار الغرب الإسلامي،1988.ص46.

[2] – بحاز إبراهيم: الدولة الرستمية (160–296هـ)دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية. ط2، القرارة،نشر جمعية التراث، 1993. ص81.

[3] – أبو زهرة محمد: مالك حياته وعصره.ط3، القاهرة، دار الفكر العربي،1997.ص59.

[4] – الغزالي أبو حامد(حجة الإسلام):إحياء علوم الدين. دمشق، مكتبة عبد الوكيل الدروبي.د،ت. ج2ص262.

[5] – ألفرد بل: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي.(ت عبد الرحمان بدوي)21،بيروت،دار الغرب الإسلامي1981.ص265.

*مهدي الفاطميين عبيد الله الذي دعمته قبائل كتامة بتأثير من داعيته أبي عبد الله الشيعي[1] والذي نجح في إقامة أول دولة للاسماعيليين بإفريقية والمغرب الأوسط ثم مصر والتي تركت آثارها في تأسيس عاصمة المهدية بتونس.

*المهدي بن يوسف الجزنائي حاكم مكناس أيام طوائف المغرب، والذي قتل من طرف قبائل برغواطة.

*المهدي بن توالا، صاحب قلعة الأطلس والذي هاجمه ابن تاشفين سنة 461هـ.

وهذه الشواهد تفيد على انتشار ظاهرة المهدية في المغرب، حتى أن متأخري الإخباريين كانوا يسمون عبد الله بن ياسين بمهدي المرابطين[2].

وحتى بعد انصرام الدولة الموحدية فإن العقيدة بقيت منتشرة، وإليها أشار ابن خلدون بقوله: "وأما ما تدعيه العامة والأغمار من الدهماء ممن لا يرجع إلى عقل يهديه ولا علم يفيده فيتحينون ذلك على غير نسبة وفي غير مكان تقليدا لما اشتهر من ظهور فاطمي ولا يعلمون حقيقة الأمر كما بيناه، وأكثر ما يتحينون في ذلك القاصية من الممالك وأطراف العمران مثل الزاب بإفريقية والسوس من المغرب، وتحد الكثير من ضعفاء البصائر يقصدون رباطا بماسة لما كان ذلك الرباط بالمغرب من الملثمين من كدالة واعتقادهم أنه منهم أو قائمون بدعوته."[3]

وقد ذكر ابن خلدون أمثلة لمدعي المهدية في ذلك الزمن المتأخر للثامنة رجلا يدعى التوزري زعم أنه القاطع المنتظر، وآخر في بلاد غمارة بالشمال سمي العباس، كما نقل عن شيخه الآبلي قدوم شيعة من كربلاء العراق لتلمسان لإظهار مهدية أحدهم لولا أنه وجد دولة بني مرين قوية أيام يوسف بن يعقوب[4].فهذه الشواهد وغيرها دالة عل تجذر مفهوم المهدية في بلاد المغرب قبل وبعد ظهور ابن تومرت.

ج–التنظيم السياسي للدعوة الموحدية:

انطلقت الدعوة الموحدية في عهد متوسط وعمادها شخصية المهدي المرشد ثم مجموع القبائل التي آمنت بالدعوة وسارت بها قدما حتى إسقاط دولة المرابطين.

ولكن الجديد في المشروع الموحدي هو بناء أجهزة قائمة للشورى ودوائر مختلفة لتحصين الحكم من الاختلال والانحراف عن مسار الدعوة، وقد ظلت هذه الأجهزة الشورية ورديفها الأجهزة العلمية (طلبة الموحدين) دوائر ضاغطة مدة طويلة ضد سقوط جهاز الحكم في سوءات سابقيه، والمكسب الأول في بداية الدولة هو ضمور العصبية القبلية لصالح حملة المشروع عندما تولى عبد المومن بن علي قيادة الدولة عن شورى ورضا أشياخ الموحدين وهو من غير عصبية المصامدة، إذ هو كومي زناتي وافد على المغرب الأقصى.

---

[1] – الدشراوي فرحات: الخلافة الفاطمية بالمغرب.ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي،1994.ص78.

[2] – زنيبر محمد :المغرب في العصر الوسيط. ط1،منشورات كلية الآداب، جامعة محمد الخامس،الرباط.1999.ص136.

[3] – ابن خلدون عبد الرحمان: المقدمة.(ت درويش الجويدي) ط2. صيدا. المكتبة العصرية.1997.ص303.

[4] –نفسه ص304.

كما أن تلك الدوائر الشورية ظلت تمارس الرقابة الدائمة في أحداث كثيرة على تصرفات الخلفاء مما أدى إلى عزل بعضهم أو نزع الشرعية عنهم كما حصل للخليفة المأمون مثلا[1]، وأهم هذه الأجهزة الشورية التي وضعها المهدي ما يأتي:

*مجلس العشرة: وهو خاص بالسابقين الذين لازموا المهدي في دعوته.

*مجلس الخمسين: وهم عرفاء القبائل التي ساندت الدعوة[2].

* مجلس السبعين: وهم عرفاء القبائل التي انضمت لاحقا للدعوة وناصرت الدولة.

ويصف ابن القطان عمل هذه المجالس بقوله: فكانوا إذا قطعوا الأمور العظام يخلون بالعشرة لا يحضر معهم غيرهم. فإذا جاء أمر أهون أحضروا الخمسين، فإذا جاء دون ذلك أحضروا السبعين رجلا، وفيما دون ذلك لا يتأخر أحد ممن دخل في أمره"[3].

فهذه الدلائل والأعمال دالة على الانطلاقة الرشيدة للدعوة المحوحدية، ولكن أواخر الأمور لن تكون كأولها عندما يدخل المشروع في المرحلة الباهتة وتقوى شوكة السلطة على المعرفة فتتعارض الأمور ويأفل المشروع.

2-الرؤية الثقافية المذهبية:

يعتبر المشروع الثقافي أهم ركيزة في التجديد الحضاري لدى الموحدون، وميزة هذا التجديد تتجلى في قلب الأوضاع المذهبية على مالكية المغرب والانتصار لحظ التأصيل في العلوم بدل التقليد والترديد. كما تتجلى في الانفتاح على العلوم العقلية من فلسفة ومنطق وكذا في تبني الرؤية الإحيائية في التصوف والسلوك، وهو ما أدى إلى هزة فكرية عنيفة لم يشهدها المغرب منذ زمن بعيد. ولفهم مظاهر هذا التجديد الذي هو حجر الأساس في النهضة الموحدية التي تجسدت سياسيا بوحدة المغارب والأندلس، ومدنيا في الإنشاءات والتعمير والرخاء المادي، وعسكريا في قوة الجيش والأسطول، فإنه يجدر بنا أن نترسم القصور السابق على هذه النهضة في القضايا الثقافية.

فمن حيث المذهبية السائدة فهي المالكية التقليدية المرتبطة بالمدرسة المصرية القيروانية وهي تختلف عن العراقية بالعكوف على أقوال الإمام مالك وابن القاسم وعدم تعديها إلى غيرها، حتى أن الأندلسيين على براعتهم الفقهية لم يخالفوا المذهب إلا في بعض مسائل سبع أو تسع معدودات.

وقد أدى هذا التكلس على مدونات الكتاب (مدونة سحنون) أوالواضحة لابن حبيب أو العتبية أو المستخرجة إلى ضعف النظر الفقهي نتيجة لاستبعاد الأدلة من النقاش والجدل. بل وأدى إلى معاداة المذاهب الأخرى وهجر أصحابها والتضييق عليهم كما حصل للأحناف بتونس، والشافعية والظاهرية بالأندلس.

سجل المؤرخون هذه الحقائق في شهادات تاريخية تعكس الواحدية المذهبية كما هو الظاهر في كتب طبقات المالكية من أندلسيين ومغاربة. ومن ذلك اللحظة التاريخية الأولى في ميلاد مذهب مالك بالأندلس وسيطرته بتحالف السلطة مع الفقهاء المالكية لإبراز التمايز عن العباسيين ومذهبهم الحنفي.

---

[1] -ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ج6ص300.

[2] -البيدق: المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب، الرباط، دار المنصور،1971.ص30.

[3] -ابن القطان: نظم الجمان ص81.

وفي ذلك نقرأ قول ابن حزم: "مذهبان انتشرا أمرهما بالرئاسة والسلطان مذهب أبي حنيفة، فإنه لما ولي القضاء أبو يوسف كانت القضاة من قبله فكان لا يولي البلاد من أقصى المشرق إلى أقصى إفريقية إلا أصحابه المنتمين إلى مذهبه، ومذهب مالك بن أنس عندنا(الأندلس)، فإن يحيى بن يحيى (راوي الموطأ) كان مكينا عند السلطان مقبول القول في القضاة، فكان لا يلي قاض في أقطارنا إلا بمشورته أو اختياره، ولا يشير إلا بأصحابه، ومن كان على مذهبه، والناس سراع إلى الدنيا والرئاسة، فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به"[1]

كما نقل لنا المقدسي صورة عن التعصب الشديد لمذهب مالك دون من سواه في توصيفه لحالة الأندلس:" أما في الأندلس فمذهب مالك وقراءة نافع، وهم يقولون: لا نعرف إلا كتاب الله وموطأ مالك فإن ظهروا على حنفي أو شافعي نفوه. وإن عثروا على معتزلي أو شيعي قتلوه"بل إن هذه الواحدية الموغلة في التعصب دفعت البعض إلى ازدراء المذاهب الأخرى كما وصف القدسي أنه: ذاكر بعضهم في مسألة فذكر قول الشافعي، فقال له: أسكت، من هو الشافعي إنما كانا بحرين. أبو حنيفة لأهل المشرق ومالك لأهل المغرب أفنتركهما ونشتغل بالساقية."[2]

انتقل هذا العكوف على الأقوال المحضة المجردة من الدليل إلى الحلق العلمية حتى خفت النظر في مصادر الأدلة، وأدى هذا إلى معاداة أهل الحديث والمتمسكين بالرواية ،ونذكر هنا محنة بقي بن مخلد القرطبي(272هـ)[3] الذي امتحن لإدخاله مصنفات الحديث الأخرى إلى بلاد الأندلس، وهي مصنفات تحكي أقوال الصحابة والتابعين غير ما عرف المالكية في موطأ مالك.

ويذكر أن أصبغ بن خليل(273هـ) اشتط في معاداته حتى قال: "لأن يكون في تابوتي رأس خنزير خير من أن يكون فيه مصنف بن أبي شيبة."[4]

ولأجل هذا لم تذكر هنا شروح لكتب السنة في القرون الأولى، وإنما كان الأمر تصحيحا للرواد الذين أفادوا من العلم المشرقي في صدمة الحزمية الناهضة، كما هو الحال مع الباجي أو ابن العربي، ومن شواهد هذا التذمر من تلك الحالة المقيتة في التعصب المذهبي ما قاله منذر بن سعيد البلوطي(355هـ)[5] في توصيف جو العلم في الحلق المالكية بالأندلس:

عذيري من قوم إذا ما سألتهم دليلا قالوا هكذا قال مالك

فإن عدت قالوا هكذا قال أشهب ومن لم يقل ما قاله فهو آفك

فإن زادت قالوا قال سحنون مثله وقد كان لا تخفى عليه المسالك

---

[1] – المقري: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب ج2ص187.

[2] –المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم.ط2،ليدن،مطبعة بريل،1906.ص336.

[3] – في ترجمة بقي بن مخلد انظر: بغية الملتمس رقم 584 ص245/جذوة المقتبس رقم331 ص177/ ابن بشكوال: الصلة رقم280ج1ص116/نفح الطيب ج2ص 215/.

[4] – عياض القاصي :ترتيب المدارك وتقريب المسالك.ط1بيروت دار الكتب العلمية ،1998. ج1ص249.

[5] – انظر نفح الطيب ج2ص191/جذوة المقتبس ص384

فإن قلت قال الله ضجوا وأعولوا علي وقالوا أن خصم مماحك.

إن الناظر في كتب التراجم والبرامج والاثبات والفهارس والطبقات يلاحظ هذه السيطرة الكلية لكتب فروع المالكية على المشهد الفقهي مع غياب تام لكتب المذاهب الأخرى وضمور لكتب أصول الفقه، وهو ما أدى إلى تكلس في المنتج الفقهي وعزوف عن الاجتهاد وضمور في مخالفة الموروث، ومثال ذلك فهرست ابن خير الاشبيلي (578 هـ)حيث لا يوجد كتاب فقهي واحد خارج المذهب من بين أربع وخمسين ذكرها.

والمتطلع لكتب التراجم مثل الصلة لابن بشكوال أو البغية للضبي يزداد رسوخا بهذه المقدمات ، وقد أدى هذا التكلس والوقوف عند المدونات المتقدمة بالقاضي ابن العربي الاشبيلي إلى نعي هذه الطرائق في التعليم والتلقي والتي أدت إلى تقليد بلدي مذهبي محض فيما يعرف بالعمل المالكي لدى مدن الأندلس في إحالتهم القارئ إلى ما سبق القضاء لدى الآخرين في مدن قرطبة وطلبيرة وإشبيلية .

أدت الشرعية الدينية لدولة المرابطين إلى الرفع من مكانة فقهاء المالكية، فبخلفية الحفاظ على النقاء المذهبي ودفع ما يجب من تيارات التمشرق السنية الحنفية والشيعية أو الخارجية تعززت مكانة الفقهاء لكونهم تداولوا أغلب خطط الدولة من قضاء وحسبة وأوقاف.

وصادف هذا توجها رسميا عند الدولة لضمان ولاء العامة وسكوتهم عن انتقاد الأوضاع. وهو ما أدى إلى اختلال في الأوضاع الاقتصادية بين العامة والعلماء(مما دفع بالشعراء والأدباء إلى هجائهم.

بصف المراكشي أيام علي بن يوسف أمير المسلمين المرابطي بقوله:" فكان إذا ولى أحدا من قضاته كان فيما يعهد إليه ألا يقطع أمرا ولا يثبت حكومة في صغير ولا كبير إلا بمحضر أربعة من الفقهاء، فبلغ الفقهاء في أيامه مبلغا عظيما لم يبلغوا مثله في الصدر الأول من فتح الأندلس، ولم يزل الفقهاء على ذلك وأمور المسلمين راجعة إليهم وأحكامهم صغيرها وكبيرها موقوفة عليهم طول مدته، فعظم أمر الفقهاء كما ذكرنا، وانصرفت وجوه الناس إليهم فكثرت لذلك أموالهم واتسعت مكاسبهم"[1].

وتبعا لذلك نشأ أدب هجائي ضد الفقهاء وكثرت وذاعت وشاعت الأزجال الشعرية ضدهم، ومن ذلك ما قاله ابن البني[2]:

أهل الرياء لبستموا ناموسكم كذئب أدلج في الظلام العاتم

فملكتموا الدنيا بمذهب مالك وقسمتموا الأموال بابن القاسم

وركبتموا شهب الدواب بأشهب وبأصبع صبغت لكم في العالم

ومن ذلك قول سليمان بن محمد السني المالكي (528)[3]

درسوا العلوم ليملكوا بجدالهم فيها صدور مراتب ومجالس

---

[1] – المراكشي: المعجب ص130.

[2] –نفسه ص130.

[3] – دنش عصمت عبد اللطيف: الأندلس في نهاية المرابطين وستهل الموحدين.ط1،بيروت،دار الغرب الإسلامي،1988.ص274

وتزهدوا حتى أصابوا فرصة في أخذ مال مساجد وكنائس

وكقول ابن الطرواة الأندلسي:

إذا رأوا جملا يأتي على بعد مدوا إليه جميعا كف مقتنص

إن جئتهم فارغا لزوك في قرن وإن رؤوا رشوة أفتوك بالرخص.[1]

وقد زادت محنة حرق كتاب الأحياء علوم الدين للغزالي (505هـ) من طرف الفقهاء [2]الأمر ضغتا على إبالة، إذ يري كثير من الباحثين أن خلفية الإحراق إنما تنم عن ضيق مبطن من الفقهاء ضد هذا الكتاب الذي هاجم علماء الدنيا المتحالفين مع السلط المنحرفة، فكان الإحراق والمنع والمصادرة للكتاب سدا ضد شيوع أفكار الغزالي الناقدة لوضعية العلوم والعلماء في زمانه[3].

لقد وقف ابن تومرت على هذه الوضعية المذهبية التي أخلت بالاجتهاد الفقهي، وجعلت العلماء أسرى النقول المتقدمة، مما قعد بهم عن إثراء الحياة العلمية نتيجة موقفهم المتحيز ضد علوم الأصول والكلام والعقليات[4]، فسعى إلى إعادة بناء العلم على أصوله الأولى بالدعوة إلى الآتي:

أ/ رفض التقليد المذهبي: والعودة إلى الأصول المصدرية قرآنا وسنة وهو ما حدا من بعده إلى مهاجمة كتب الفروع المالكية، والانتصار لمنزع ابن حزم الظاهري الذي رماه المالكية عن قوس واحدة نتيجة دعوته الرامية إلى تخطي التقليد والعودة إلى المنابع الأولى للشريعة، قد باشر هذا المشروع عبد المؤمن بن علي في مناظرته مع الفقيه أبي بكر بن الجد، ثم تجسد على يد الخليفة أبي يوسف يعقوب المنصور الذي أصدر مراسيمه بحرق كتب الفروع والعودة إلى المصادر، ويصف المراكشي هذه الجملة بقوله:"وفي أيامه انقطع علم الفروع وخافه الفقهاء، وأمر بإحراق كتب المذهب، بعد أن يجرد ما فيها من حديث رسول الله والقرآن، ففعل ذلك، فأحرق منها جملة في سائر البلاد كمدونة سحنون وكتاب ابن يونس ونوادر أبي زيد ومختصره، وكتب البرادعي وواضحة ابن حبيب، وما جانس هذه الكتب ونحا نحوها، ولقد شهدت منها وأنا يومئذ بمدينة فاس، يؤتى منها بالأحمال فتوضع ويطلق فيها النار، وتقدم إلى الناس في ترك الأشغال بعلم الرأي والخوض في شيء منه، وتوعد على ذلك بالعقوبة الشديدة."[5]

ب/ الانفتاح على العقليات من علوم الكلام والفلسفة والمنطق، إذ كانت البلاد المغربية والأندلسية خلوا من هذه العلوم إلا في الأقل لاقترانها في العقل الفقهي بمسارات الإلحاد والزيغ والأهواء، وربما كان للصدمة الفاطمية الإسماعيلية التي رفعت من هذه العلوم وسائل وأسلحة لبث آرائها التحريفية ذريعة للفقهاء كي يقفوا منها موقف العداء، موقف عبر عنه

---

[1] –محمد الوثيق: عبد الحق الإشبيلي وآثاره الحديثية.ط1،بيروت، دار ابن حزم،2011.ص40.

[2] –انظر الطاهر المعموري: الغزالي وعلماء المغرب. تونس،،الدار التونسية للنشر،1990.ص15.

[3] –بوتشيش إبراهيم: إضاءات حول تراث الغرب الإسلامي،ط1،بيروت،دار الطليعة،2002.ص131

[4] –انظر: محمد الأمين بلغيث: دولة المرابطين بالأندلس من مدينة السياسية إلى مدينة العلم.ص148.

[5] – المراكشي: المعجب ص203.

رسميا في الدولة المرابطية بحظر علم الكلام وما ولاه من وسائل الجدل وأساليب المنطق بإصدار مراسيم مانعة من ذلك. وفي ذلك يصف المراكشي الحال المرابطية:

"ودان أهل ذلك الزمان بتكفير كل من ظهر منه الخوض في شيء من علوم الكلام، وقرر الفقهاء عند أمير المؤمنين تقبيح علم الكلام وكراهة السلف له، وهجرهم من ظهر عليه شيء منه، وأنه بدعة في الدين، وربما أدى أكثره إلى اختلاف في العقائد في أشباه لهذه الأقوال، حتى استحكم في نفسه بغض علم الكلام وأهله، فكان يكتب عنه في كل وقت إلى البلاد بالتشديد في نبذ الخوض في شتى منه وتوعد من وجد عنده شيء من كتبه."[1]

وحمل أدب الوصايا العلمية ذلك الرشح من الرفض للعلوم العقلية التي سجلت تأخرا كبيرا مقارنة المشرق ففي وصية الإمام الباجي لولديه في التحذير من الكلام والمنطق:' وإياكما كما وقراءة في شتى من المنطق وكلام الفلاسفة، فإن ذلك مبني على الكفر والإلحاد والبعد في الشريعة والإبعاد."[2]

وكان من آثار تلك الحملة الشديدة على علم الكلام ما وقع لكتاب إحياء علوم الدين للغزالي الذي أحرق بمرسوم رسمي[3] "ولما دخلت كتب أبي حامد الغزالي إلى المغرب أمر أمير المسلمين –علي بن يوسف– بإحراقها، وتقدم بالوعيد الشديد من سفك الدم، واستئصال المال إلى من وجد عنده شيء منها، واشتد الأمر في ذلك"[4]

كان وقع هذه المراسيم والفتاوى والوصايا ذا أثر سيء على المنتج العقدي في المغرب، وهو ما جعل العديد من المؤرخين يصفون المرحلة المرابطية بالتأخر في العلوم العقلية ومن ذلك وصف المقدسي :"والمالكية من فظاظ الحشوية".

لقد اعتمد بن تومرت في مشروعه الثقافي الجديد فتح المصاريع أمام العلوم العقلية بما حمله من ميراث أشعري ومعتزلي من المشرق، ويتجلى ذلك في حملته الشديدة على الموقف السلبي للمرابطين من الخوض في النصوص العقدية تفسيرا أو تأويلا مما جعلهم ينزلقون حسبه إلى بدعة التجسيم، ولذلك سماهم بالمجسمين، وإن كان الأمر ليس كما وصف ابن تومرت من تلك البدعة الغليظة، ولكنه إقرار بقصور المرابطين في القضايا الكلامية ، ولأجل ذلك ناضل ضد التقليد في العقائد واعتمد النسق الأشعري في بناء المفاهيم العقدية على الأسس الرصينة في الاستدلال للحكم بكل مشاربه العقلية والنقلية، ويتجلى ذلك في عقيدته المرشدة التي صارت أهم ما يحفظ ويدرس ويتداول في المدارس الموحدية[5]، لأنها لأنها كانت قد صيغت باللسان العربي والبربري خاصة وأن الدولة الموحدية ألزمت الطلبة بها، بل إن عبد المؤمن بن علي أجاز عليها، وجعل مدارستها مشروعا قوميا للدولة أو تعليما إجباريا للعوام، ومن ذلك ما أورده المؤرخ البيدق في مرسوم

---

[1] – المراكشي: المعجب ص131.

[2] –الباجي: وصية الامام الحافظ الباجي(ت جلال الجهامي) بيروت، مؤسسة الريان،1996.ص38.

[3] –محمد المنوني: إحياء علوم الدين في منظور الغرب الإسلامي أيام المرابطين والموحدين.–ضمن أعمال ندوة الغزالي–منشورات كلية الآداب، جامعة محمد الخامس،الرباط–1988.ص125

[4] – المراكشي:المعجبص131.

[5] –انظر عبد المجيد النجار: المهدي بن تومرت ص449/احنانة يوسف: تطور المذهب الأشعري في المغرب الإسلامي. المغرب، منشورات منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية،2003.ص89.

عبد المؤمن:" يلزم العامة ومن في الديار بقراءة العقيدة التي أولها: اعلم أرشدنا الله وإياك، وحفظها وتفهمها".وشواهد موضوع انتشار الكلام والأصول تجل عن العد والحصر.

ثالثا: الإبداع الاقتصادي والرفاه الاجتماعي:

أسهمت عوامل وحدة المغرب الإسلامي والأندلسي والاستقرار السياسي والتنظيمات الإدارية العالية للموحدين في بعث نهضة اقتصادية فريدة في العصور الوسطى عادت بالرخاء والنماء على مجموع الساكنة الإسلامية، حيث كان من المعونات السابقة للتنمية مسألة التشرذم والتنازع على السلطة والصراع المرير بين الحضر والبدو، وسكان الجبال وأصحاب البسائط والسهول وهو ما أشار إليه ابن خلدون في تقييمه لقضايا العمران بالمغرب وخراب الآثار وانتقاص المدن وكثرة المجاعات "وأما المجاعات فلقبض الناس أيديهم من الفلاحة في الأكثر بسبب ما يقع في آخر الدولة من العدوان في الأموال والجبايات، أو الفتن الواقعة في انتقاص الرعايا وكثرة الخوارج لهدم الدولة، ..... وأما كثرة الموتان فله أسباب من كثرة المجاعات، أو كثرة الفتن الاحتلال للدولة فيكثر الهرج والقتل أو وقوع الوباء."[1]

1-الرخاء الاقتصادي:

أدرك الموحدون سر الوحدة والقوة السياسية فصرفوا جهود ومقدرات الدولة للحفاظ على هذا المكسب الضامن للاستقرار والنماء الاقتصادي والتلاحم الاجتماعي، ومن أهم الوسائل المعتمدة في ذلك ما يأتي:

أ- الزراعة: التي هي عماد الحضارة ومظهر الاستقرار، وقد شهدت تراجعا فيما قبل الموحدين بسبب الصراع المتبادل بين البدو ومن عرب بني هلال وسليم وبربر زناتة وبين الحضر[2] مما أثر على الجودة وعلى الاكتفاء في المعاش فكثرت القحوط والمجاعات[3] بالأسباب السياسية والمناخية، وسجل المؤرخون عددا منها في أواخر المرابطين حيث أورد ابن عذاري في حوادث(498هـ):"تنامي القحط في بلاد الأندلس والعدوة حتى أيقن الناس بالهلاك"[4].

إلا أنه ومنذ أن بسط الموحدون سلطتهم على المغرب والأندلس استقرت الأوضاع وشاع الأمن "وارتفعت بلايا الكوارث الطبيعية، ونهض الفلاحون والحرفيون والتجار إلى سعيهم فانبسطت الأحوال."[5]

يعود التقدير الجيد في العناية بالزراعة إلى عبد المؤمن بن علي الذي كلف فريقا من المهندسين بمسح أراض المغرب كله لتنظيم الزراعة، فقام بتكسيره كله وأسقط ثلث المساحة المتعلقة بالجبال والغياض والأنهار، وضرب الخراج على القبائل من الزرع والورق[6].

---

[1] - ابن خلدون: المقدمة ص377.

[2] -عبد المجيد مزيان: النظريات الاقتصادية عند ابن خلدون.ط2،الجزائر،ديوان المطبوعات الجامعية،1988.ص231.

[3] -انظر: عبد الهادي البياض: الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس ق6-8.ط1،بيروت،دار الطليعة،2008.ص19.

[4] -ابن عذاري: البيان المغرب .ج4ص39.

[5] - عبد الهادي البياض: الكوارث الطبيعية ص24.

[6] - ابن أبي زرع: روض القرطاس ص260.

وعند عمارته لمراكش لم يغفل جانب الزراعة إلى التعمير فزواج بينهما كما هو النص عند المراكشي: "ثم سار حتى أتى مراكش فنزلها وأخذ في البناء والغراسة وترتيب القصور غير مخل بشيء مما يحتاج إليه المملكة من السياسة وتدبير الأمور وسط العدل والتحبيب إلى الرعية وإخافة من يحب إخافته"[1]. وكذلك خليفته أبو يعقوب الذي نهض بالزراعة والاقتصاد بما لم يسبقه أحد: "ولم تزل أيام أبي يعقوب هذه أعيادا وأعراسا ومراسم من كثرة خصب وانتشار أمن ودرور أرزاق واتساع معايش، لم ير أهل المغرب أياما قط مثلها، واستمر هذا صدرا من إمارة أبي يوسف."[2]

ومما يدل على الاهتمام بالزراعة والغراسة شيوع التأليف في علومها، ومما يعد نادرة العصر، ومن أمثلة تلك المؤلفات ما كتبه ابن العوام أبو زكريا يحي بن أحمد الاشبيلي (540هـ)[3] الذي اعتمد في مؤلفه على كتاب الفلاحة لابن البصال الطليطلي، وقد عرض في مؤلفه الفنون الزراعية والمواسم المناخية والوسائل المعينة على الإنتاج والوفرة.

ب– التوطين والتعمير: أدرك الموحدون قوة المدنية والعمارة في استطالة الدولة فبذلوا جهدهم لاستقطاب القبائل البدوية والجبلية للاستقرار، ومن ذلك سياستهم تجاه القبائل البدوية من عرب بني هلال[4]، فبعد أن كانوا شوكة في حلق الدول السابقة. استطاع الموحدون اكتسابهم وترحيل الكثير منهم إلى الأندلس لتقوية الجبهة الإسلامية ضد النصارى وهي السياسة التي باشرها عبد المؤمن حيث كاتبهم واستنفرهم إلى الغزو بالأندلس مستنهضا هممهم بالقصائد الرصينة ورتبهم في الجزيرة فجعل بعضهم في نواحي قرطبة، واشبيلية، فهم بها باقون، وقد انتشر من نسلهم بتلك المواضع خلق كبير"[5].

شهدت المدن الأندلسية المغربية على عهد الموحدين نموا كبيرا إذ باشروا إصلاح الحصون والثغور بعد استنقاذ كثير منها من أيدي النورمان الغزاة الصليبين، وخاصة مدينة المهدية التونسية التي استرجعت سنة 553 هـ على يد عبد المؤمن الذي:" أخرج الإفرنج منها – من طرابلس المغرب وبلاد الجريد– وألحقهم ببلادهم، فمحا الله به الكفر من إفريقية، وقطع منها طمع العدو، فانتبه بها الدين بعد خموله، وأضاء كوكب الإيمان بعد انطماسه وأفوله."[6]

شيد الموحدون مدنا حديثة كالرباط –رباط الفتح– علي يد الخليفة أبي يعقوب، وبنى مسجدها الكبير الذي له منارة ضخمة كمنارة الإسكندرية، قال عنه المراكشي: لا أعلم في مساجد المغرب أكبر منه وعمل له مئذنة في نهاية العلو على هيئة منارة الإسكندرية"[7].

---

[1] – المراكشي عبد الواحد: المعجب في تلخيص أخبار المغرب(ت صلاح الدين الهواري)ط1،صيدا،المكتبة العصرية،2006. ص167.

[2] – المراكشي: المعجب ص188.

[3] –في حياة ابن العوام انظر كحالة عمر رضا: معجم المؤلفين،ط1،بيروت،دار الرسالة،1993. ج4ص111.

[4] –انظر مصطفى أبو ضيف: القبائل العربية في المغرب في عصري الموحدين وبني مرين. الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية،1982.ص59.

[5] – المراكشي: المعجب ص167.

[6] – المراكشي: المعجب ص169.

[7] – المراكشي: المعجب ص195.

أما خلفه أبو يوسف فقد دفعت حركة التعمير في عهده قدما: "فإنه كان مهتما بالبناء، وفي طول أيامه لم يخل من قصر يستجده أو مدينة يعمرها، زاد في مدينة مراكش في أيامه زيادة كثيرة يطول تفصيلها"[1].

ومن الآثار المخلدة جامع الكتبية بمراكش، ومئذنة الخيرالدا بأشبيلية ومدينة تازا التي أنشأها عبد المؤمن سنة(529 هـ)[2] ومدينة جبل طارق العسكرية التي اشتهرت بالمطاحن الهوائية لمقابلتها رياح المحيط الأطلسي.

ج– السياسة الجبائية:

من العوامل المهمة التي ساعدت على النماء الاقتصادي والرفاه الاجتماعي السياسة الضرائبية التي عمل بها الموحدون الذين التزموا أحكام الشريعة في تحصيل الواجب الشرعي من أموال الناس في الزكاة والخراج والعشر، ولم يتعدوها إلى الضرائب الباطلة والمغارم والقبالات التي شاعت أيام دولة المرابطين وكانت سببا في انقلاب الناس عليهم، "إذ لم يكن السبب في ثورة المصامدة غير الضرائب الكثيرة التي فرضها المرابطون في أخريات أيامهم، والطريقة المجحفة في جبايتها"[3].

كما شكل التباعد بين طبقتي الحكام والعامة دوره في تنامي تفسخ الدولة وانهيارها[4]. إذ زادت الضرائب وأهملت الزراعة، وتعسف الجباة والخراص في جباية الأعشار وساءت الأحوال الاقتصادية بسبب كثرة الجبايات[5]، وخاصة في عهد عهد ملوك الطوائف الثاني في أيام اندثار المرابطين، إذ كانت الضرائب على كل شيء قل أو كثر، وكل ما يباع في الأسواق تؤدى عليه ضريبة، حتى وصلت الضرائب ما يقارب ثمن السلعة، فعجز الناس عن البيع والشراء."[6]

بعد استقرار المر للموحدين عدلوا هذه السياسات الضرائبية فلم يزيدوا على المفروض الشرعي من الزكاة والخراج والعشور، تبعا لما أقره عبد المؤمن بن علي من مسح أراضي المغرب وإسقاط الثلث مقابل الجبال والغياض والأنهار والسبخ، وفرض الخراج على ثلثي الأراضي، باعتبار أراضي المغرب قد فتحت عنوة، فكثر الخراج واتسعت خزينة الدولة، فخراج افريقية وحدها بلغ وقر مائة وخمسين بغلا، خلا خراج المغرب الأوسط والأقصى والأندلس، وذلك في عهد أبي يعقوب[7].

ولتنمية التجارة الداخلية عدلت الدولة السياسية النقدية بعد وضع الضرائب فأصدرت عملة جديدة –خلفا للدينار المرابطي– فأصدرت درهما جديدا مع نصفه وربعه وثمنه، لتسهيل عملية التبادل[8]. ولكسرة الاحتكار نشطت الدولة جهاز الحبسة، وأوكلت إلى أصحابه مهمة المراقبة وتنفيذ العقوبات على المتلاعبين بنظام الأسواق وأقوات الناس، ولا غرو أن أهم كتب الحسبة قد كتب في زمن الموحدين، بل إن رأس السلطة ذاته كان يراقب حركة السوق والتجارة،

---

[1] – المراكشي: المعجب ص212.

[2] – عبد الله علام: الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي. الجزائر، طباعة الجيش،2007.ص379.

[3] –عز الدين موسى: النشاط الاقتصادي في الغرب الإسلامي. القاهرة، دار الشروق،1983.ص154.

[4] –العروي: مجمل تاريخ المغرب.ط5،الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي،1996. ج2ص129.

[5] –دنش عصمت عبد اللطيف: الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين..ص168

[6] – المرجع نفسه ص232.

[7] –المراكشي: المعجب ص187.

[8] –عبد الله علي علام: الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي.ص255.

فقد ذكروا في أخبار الخليفة أبي يوسف: "أنه آمر أن يدخل عليه أمناء الأسواق وأشياخ الحضر في كل شهر مرتين يسألهم عن أسواقهم وأسعارهم وحكامهم."[1]

د- البحرية الموحدية:

أدى الانقلاب الحضاري والحركية الاجتماعية الجديدة في أرجاء المغرب الإسلامي إلى قلب موازين القوى في البحر المتوسط، بعد أن كانت مدنه وثغوره هدفا لهجمات النورماند الذين استطاعوا احتلال بعض من تونس وتهديد باقي السواحل، وانصرفت همة الموحدين إلى بناء أسطول قوي للسيطرة على البحر، وهو المشروع الذي افتحه عبد المؤمن بن علي حيث كان أسطوله كبيرا تمكن به من حماية السواحل، وكان هذا الأسطول أقوى أسطول في البحر المتوسط[2].

والذي يدل على هذه القوة تغيير موازين القوى لصالح المسلمين حيث صار ملوك النورماند في صقلية يدفعون الأتاوة لخليفة الموحدين[3].

وصف ابن خلدون هذا التغير الحضاري بقوله: لما استفحلت دولة الموحدين في المائة السادسة وملكوا العدرتين، أقاموا خطة الأسطول على أتم ما عرف وأعظم ما عهد، وانتهت أساطيل المسلمين حينئذ في الكثرة والاستجادة إلى ما لم تبلغه من قبل ولا من بعد فيما عهدنا."[4]

الاستجادة هي مفتاح الإتقان الموحدي الذي بلغ أوجه في بناء أول عاصمة بحرية عسكرية وهي جبل طارق سنة(555هـ) الذي أبدع فيه الموحدون كل الإبداع من استغلال طاقة الرياح لتسيير الثورة الاقتصادية[5]. ولا تزال هذه المنطقة مفتاح السيطرة على المدخل الغربي للبحر المتوسط.

كما انشأ الموحدون على طوال السواحل مصانع لبناء السفن في أغلب سواحل المتوسط[6] لتنتج مختلف المراكب المدنية والعسكرية، كالشواني والطرائد والمسطحات والحراريق والقوارب والزوارق[7].

ولشهرة هذا الأسطول فكر صلاح الدين الايوبي في الاستنجاد به لتضييق الحصار على صليبيي الشام وفلسطين حيث راسل المنصور الموحدي بذلك سنة 585 هـ[8].

ولا غرو فإنه بانقراض دولة الموحدين تراجع النشاط البحري لصالح أوروبا التي بدأت تقضم المدن الواحدة تلو الأخرى لولا الهبة الجديدة للعثمانيين.

---

[1] - المراكشي: المعجب ص208.

[2] -شارل أندري جوليان: إفريقيا الشمالية تسير(ت محمد مزالي)،الدر التونسية للنشر،1985.ج2ص162.

[3] -العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس. الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة،2008.ص246/المعجب ص185.

[4] -ابن خلدون:المقدمة،ص234.

[5] - العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس ص341

[6] - ابن أبي زرع: روض القرطاس ص263/ السلاوي: الاستقصا ج1ص274.

[7] -المنوني: حضارة الموحدين ص171.

[8] -ابن أبي زرع :روض القرطاس ص140/ السلاوي: الاستقصا ج1ص300/ ابن خلدون: المقدمة ص235.

2- الرفاه الاجتماعي:

لقد تغير الوجه الحضاري للمغرب الإسلامي والأندلس بفضل الوحدة السياسية التي أقامها الموحدون فتغيرت حياة الإنسان الذي حمل أمانة التحضر من جديد، فكان الاتساع العلمي والنشاط الثقافي والعمران المادي والرفاه الاجتماعي الذي عاد على الساكنة بالسلم والأمان.

ولا يمكننا أن نعدد الأوجه الجديدة للحياة الاجتماعية في بلاد المغرب أيام الموحدين، لكننا نكتفي بإشارات دالة على الألق الحضاري الجديد في المغرب والأندلس، بالكلام عن بعض المنشآت الاجتماعية ومنها:

أ-البيمارستانات: وهي المنشآت الصحية التي ذاع صيتها أيام الموحدين حيث كفلت الدولة الرعاية الصحية لمواطنيها، وهو ما قلب الحياة رأسا على عقب حيث تراجعت الأوبئة وانحسرت الأمراض العامة بسبب قوة المحتسبين في مراقبة الأسواق والأطعمة، وتعود الريادة في ذلك إلى أبي يوسف بن علي:" الذي بنى بمراكش بيمارستانا ما أظن أن في الدنيا مثله، وذلك أنه تخير ساعة فسيحة بأعدل موضع في البلد، وأمر البنائين بإتقانه على أحسن الوجوه فأتقنوا فيه النقوش البديعة والزخارف المحكمة ما زاد على الاقتراح، وأمر أن يغرس فيه مع ذلك من جميع الأشجار المشمومات والمأكولات، وأجرى فيه مياها كثيرة تدور في جميع البيوت....." [1] بل إن الرعاية الصحية بلغت إلى حد الاهتمام بالوقاية الكاملة بتعهد اللباس والطعام ومتابعة المرضى بعد خروجهم، وكان الخليفة ذاته يتفقد المرضى كل جمعة.

بل إن العناية شملت حتى ذوي العاهات الدائمة مثل المجانين الذين أنشأ لهم الخليفة المنصور بيمارستانا خاصا، وأجرى النفقات عليهم[2].

وفي أيام الوباء كانت الدولة تفرض على الناس استصحاب بطاقات تعريفية خاصة بها أسماؤهم ونسبهم ومواضع سكناهم للتعرف عليهم في حال موتهم لإعادتهم إلى أهاليهم، مما يعد سبقا حضاريا في الإحصاءات الحديثة[3].

ولا أدل على ازدهار العلوم الطبية في عهد الموحدين من كثرة المؤلفين في فنون الصيدلة والجراحة والطب أمثال أبي مروان عبد الملك بن زهر الاشبيلي (755 هـ) وحفيده أبي بكر بن زهر (602 هـ)، وأبي الوليد بن رشيد الحفيد (595 هـ)[4] وغيرهم.

ب- إلزامية التعليم: وهي المسألة التي عني بها الموحدون وصرفوا لها المبالغ الطائلة للقضاء على الأمية والجهالة التي كانت منتشرة بالمغرب بين البربر، وهي من الأسباب المهمة للتمرد على النظام والانخراط في الفتن والثورات.

وهي السياسة التي اتبعها عبد المؤمن بن علي في تقديم الطلبة على غيرهم، حتى إن كلمة الطالب لا تزال تستعمل اليوم كناية عن العالم المتمكن من الشرع، رغم أن مبدأها هو الاشتغال برسوم العلم. فكثير من العلماء يسمون باسم الطالب كما هي العادة في المغربين الأوسط والأقصى.

---

[1] - المراكشي: المعجب ص209.

[2] -ابن أبي زرع: روض القرطاس ص138.

[3] - محمد المنوني: حضارة الموحدين.ط1،الدار البيضاء، دار توبقال،1989. ص94.

[4] - المنوني: حضارة الموحدين 90.

وصنف المراكشي عبد المؤمن بأنه كان: مؤثرا لأهل العلم محبا لهم محسنا إليهم، يستدعيهم من البلاد إلى الكون عنده والجوار بحضرته، ويجري عليهم الأرزاق الواسعة، ويظهر التنويه بهم، والإعظام لهم، وقسم الطلبة طائفتين: طلبة الموحدين وطلبة الحضر"[1]

وبلغت سياسة تقريب طلبة العلم أوجها في عهد أبي يعقوب الذي أصدر بيانه السياسي في العناية بمنتسبي التعليم بقوله:" يا معشر الموحدين أنتم قبائل فمن نابه منكم أمر فزع إلى قبيلته وهؤلاء الطلبة —لا قبيل له إلا انا– فمهما نابهم أمر فأنا ملجؤهم وإلي مفزعهم، وإلي ينتسبون، فعظم منذ ذلك اليوم أمرهم، وبالغ الموحدون في إكرامهم وبرهم."[2]

ج– الرعاية الاجتماعية: وذلك لأصناف المستضعفين والفقراء العاجزين حيث حمل بيت المال عبئ النفقة على هؤلاء، وذلك بعد الإحصاء العام، وكان الإنفاق العام يزداد عند كل اقتراب بحملة جهادية، وشواهد ذلك كثيرة[3] وخاصة في أيام أبي يوسف وازدهار الدولة، ومن ذلك : الإنفاق على أهل الصلاح والخير المنقطعين للتعليم، و على الفقراء وأهل البيوت المستورة والأرامل.و الختان المجاني لأبناء الفقراء وإعطائهم الكسوة والنفقة.

رابعا: النهضة العلمية المعرفية.

يعد العهد الموحدي أزهى العهود العلمية للمغرب الإسلامي، إذ لم يسبق ولم يلحق في إنتاجه العلمي الرصين في مختلف المعارف والفنون الشرعية منها والكونية. وهي حقيقة بازغة للعيان في استعراض المؤلفات والمؤلفين وفي اكتشاف مراكز التعليم وطريق التدريس، حيث اكتفت العصور اللاحقة التي تجمد فيها العقل وتكلس فيها العلم إلى العودة إلى التقليد وإغلاق الاجتهاد والعكوف على المقررات والحواشي والمتون والمختصرات والمعتصرات والمهتصرات. و يمكن العودة بهذه النهضة العلمية اللافتة إلى جملة أسباب أهمها:

*دور الاستقرار السياسي والوحدة الجغرافية بين العدوتين الأندلسية المغربية في التمكين لتلاقح الأفكار وانتقال المعارف، خاصة وأن العلماء كانوا يتبادلون خطط الفقهاء والتعليم في كل مدن الخلافة الموحدية من تونس شرقا إلى أقصى السوس جنوبا وطليطلة شمالا.

*العنايةالشديدة للسلطة السياسية بموضوع التعليم، وتقديم طلبة العلم على غيرهم، وشواهد ذلك كثيرة في إلزامية التعليم، والإجازة عليه، وكما هو المعهود من سيرة عبد المؤمن وخلفائه[4].

*إنشاء المراكز التعليمية ودو الطلبة في مدن الخلافة، ومن أشهرها المدرسة الخاصة بمراكش والتي كانت تخرج إطارات الموحدين الجامعين لعلوم الشريعة وفنون الإدارة وأساليب القتال وكان المنهاج الدراسي يعتمد حفظ القرآن الكريم وتآليف المهدي بن تومرت مثل: أعز ما يطلب ومحاذي الموطأ. إضافة إلى جوامع الحديث واللغة. والتدرب عل الفنون الرياضية كالرمي والسباحة والركوب.

---

[1] – المراكشي: المعجب ص150.

[2] – المراكشي: المعجب ص204.

[3] –انظر: المراكشي: المعجب ص208-209.

[4] – المنوني: حضارة الموحدين ص21.

*تيسير العلوم لعموم فئات الشعب باستخدام اللغتين العربية والبربرية، حيث استثمر الموحدون في اللسان البربري في صياغة بعض المقررات، مثل المرشدة لابن تومرت، بل إن إنهم كانوا لا يولون الخطباء والمفتين الذين لا يحسنون اللسان البربري في مناطق البربر لعجزهم عن التواصل مع الساكنة.

* ربط بالحاجات الحضارية لمجتمع ففي أيام الصدام مع الجبهة الصليبية أمر الخليفة المنصور بجمع أحاديث الجهاد من كتب السنة وأمر بنشرها وحفظها والإجازة عليها تقوية وتعبئة للجبهة الداخلية.

*فتح باب الاجتهاد والعودة إلى الأصول والقفز على كتب الفروع المذهبية، وهي النقطة الحضارية الفاصلة في تاريخ المغرب الفكري، إذ أنه وبتأثير بن تومرت الذي فتح باب الاشتغال بأصول الفقه والكلام وبتوجيه من الخليفة يعقوب المنصور الذي حارب كتب الفروع المالكية انعطف الناس إلى الأصول قرآنا وسنة وشاع الاشتغال بمدونات الحديث، حيث:" نال عنده ، طلبة الحديث ما لم ينالوه في أيام أبيه وجده هذا إلى أن غير واحد من خلفائهم وأمرائهم كانوا محدثين حفاظا، فيوسف كان يحفظ أحد الصحيحين، ويعقوب كان يحفظ متون الأحاديث ويتقنها، والمأمون كان معدودا من حفاظ الحديث لم يزل أيام خلافته يسرد كتب الحديث مثل البخاري والموطأ وسنن أبي داود".

وفي واقعة غريبة أيام يعقوب أنه سأل أحد علماء جيان يسمى أبا بكر بن هاني عما قرأ من العلم؟ فقال: قرأت تواليف الإمام ابن تومرت: فنظر إليه مغضبا فقال: ما هكذا يقول الطلاب. إنما حكمك أن تقول: قرأت كتاب الله، وقرأت شيئا من السنة، ثم بعد هذا قل ما شئت"[1].

ولأجل هذه السياسة المنتهجة في محاربة التقليد المذهبي انطلقت العقول من عقالها، فكانت هذه الفترة أزهى وأثمر في الإنتاج العلمي حول الأصلين القرآن والسنة وبرز محدثون كبار أمثال عبد الحق الاشبيلي البجائي[2] صاحب الأحكام الشرعية في الحديث الكبرى والوسطى والصغرى، والذي بنى فيها الفقه على الحديث[3]. وكذلك ابن القطان أبو الحسن علي بن عبد الملك، الذي كان بصيرا بالحديث رواية ودراية.

ومن المعلوم أن مثل هذه المؤلفات كانت بدعا في خط التأليف العلمي لدى مالكية المغرب والأندلس إذا استثنينا مشاريع ابن عبد البر وابن العربي الاشبيلي وهي مشاريع لم تكتب لها الاستمرارية.

* بناء خط التأصيل في العلوم، وهي القضية المركزية في مشروع المهدي بن تومرت الذي هدف إلى وضع الأساس المنهجي في فهم الشريعة انطلاقا من الأصول المتمثلة في نصوص القرآن والحديث دون سواها من أقوال الفقهاء وتفريعاتهم[4]. وبدأ بتطبيق مشروعه بنفسه في المصنفات التي كتبها مثل كتاب الطهارة [5]حيث شحنه بالآيات والأحاديث

---

[1] – المراكشي عبد الواحد: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص212.

[2] – عبد الحق البجائي: الغبريني: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية.(ت محمد بن أبي شنب)ط1،الجزائر،دار البصائر،2007.ص18/بغية الملتمس رقم1104ص391.

[3] – محمد الوثيق: عبد الحق الإشبيلي وآثاره الحديثية.ص161.

[4] – عبد المجيد النجار: فصول في الفكر الإسلامي بالمغرب.ص89.

[5] –ابن تومرت:أعز ما يطلب(ت عمار طالبي) ص275.

عكس ما كان رائجا قبله، ومن ذلك اختصاره لموطأ مالك فيما عرف بمحاذي الموطأ، حيث حذف منه أسانيده وهذبه،نفس الأمر فعله مع صحيح مسلم ليتيسر له ربط الأحكام بمصادرها.

لقد ازدهر الاجتهاد العلمي في عهد الموحدين ونصعت نواصي علمية عديدة ورفع الحجر والحضر عن أتباع المذهب الظاهري الذي وجدوا في التوجه الموحدي التأصيلي فرصته لنشر آرائهم، مما دفع بعض الباحثين إلى القول بأن الدولة تبنت المذهب الظاهري. وأن ابن تومرت كان حزمي النزعة[1]. ولكن الظاهر من تتبع النقاش والمؤلفات أن الدولة رسمت سياسة فتح باب الاجتهاد دون توسل لمسعاها بمذهب معين في الغالب، إذا كانت أسسها الدينية قائمة على رفض التقليد وهو ما أدى في النهاية إلى إطراح القول بالعصمة والمهدية، و هي من أسس الدولة الأيديولوجية أيام الخليفة المأمون[2]، ومما يدل على عدم التزام الدولة مذهبا معينا هو نشاط حركة الردود على الظاهرين من طرف المالكية كما فعل أبو الحسن بن زرقون في كتابه: المعلى في الرد على المحلى والمجلى" ،و ما فعله أبو زكريا الزواوي[3] في كتابه"حجة الأيام وقدوة الأنام" وقد امتحنا بسبب ذلك.

قدم لنا ابن خلكان شهادة حية على مظاهر الثراء العلمي زمن الموحدين بقوله: أمر المنصور برفض فروع الفقه، وأن العلماء لا يفتون إلا بالكتاب العزيز والسنة النبوية، ولا يقلدون أحدا من الأئمة المجتهدين المتقدمين، بل تكون أحكامهم بما يؤدي إليه اجتهادهم. ولقد أدركنا جماعة من مشايخ الغرب وصلوا إلينا وهم على ذلك الطريق....."[4]

من مظاهر النهضة العلمية المشرقة حركة العلوم العقلية والفلسفية التي لم يشهد المغرب الإسلامي لها مثيلا من قبل ولا بعد، فقد نشطت علوم الكلام والفلسفة بما سطره المؤسس بن تومرت من إعادة الاعتبار لهذه العلوم المنبوذة من المرابطين، بل إن من الأسباب المهمة لظهوره علميا على فقهاء المرابطين إحكامه لعلم الكلام في مناظرته الأولى[5]، " فلما فلما ظهر ابن تومرت بمنهجه العقلي النقدي المقارن، وصار المنهج سياسة الدولة من بعدها انفتحت الأذهان لتقبل العلوم الفلسفية، وصارت هذه العلوم عنصرا من عناصر الثقافة المغربية"[6] وسار على منواله الخليفة أبو يعقوب يوسف:" الذي طمح به شرف نفسه وعلم همته إلى تعلم الفلسفة فجمع كثيرا من أجزائها، وبدأ من بعد ذلك بعلم الطب... ثم تخطى ذلك إلى ما هو أشرف منه من أنواع الفلسفة وأمر بجمع كتبها، فاجتمع منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموي."[7]

---

[1] –انظر في موضوع الظاهرية: الجابري محمد عابد: تكوين العقل العربي.ط11،بيروت،مركز دراسات الوحدة العربية،2011.ص311/– سالم يفوت: ابن حزم والفكر الفلسفي بالمغرب والأندلس.ط1،الدار البيضاء،المركز الثقافي العربي،1986.ص145/ بولطيف لخضر: فقهاء المالكية والتجربة الموحدية.ط1،المعهد العالمي للفكر الإسلامي،2009. ص108.

[2] –انظر ابن أبي زرع: روض القرطاس ص330/ السلاوي: الاستقصا ج1ص341

[3] – مخلوف محمد :شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، بيروت ،دار الفكر –د،ت.ص184.

[4] –ابن خلكان: وفيات الأعيان ج5ص379.

[5] –انظر المناظرة في ابن أبي زرع: روض القرطاس ص222.

[6] – عبد المجيد النجار: المهدي بن تومرت ص466.

[7] – المراكشي عبد الواحد: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص175.

ظهر أثر هذا الاهتمام بالعلوم العقلية في وفرة المتكلمين وعلو صيتهم أمثال ابن العربي(543هـ) أهم قناطر الأشعرية للمغرب، وكذا أبو عمرو عثمان السلالجي (574 هـ)[1] منقذ أهل فاس من التجسيم. وصاحب منظومة العقيدة البرهانية التي كتب عليها شروح كثيرة[2].

وفي مقارنة الأديان برزت ردود كثيرة على المسيحيين أيام المواجهات مع الإسبان. ومن ذلك ما كتبه أبو جعفر أحمد بن عبد الصمد الخزرجي (582هـ) في"مقامع الصلبان".

وفي الفلسفة برزت أسماء بن طفيل صاحب رائعة "حي بن يقظان" من ملازمي الخليفة أبي يعقوب وهو من تلامذة الفيلسوف ابن باجة (533هـ)، وكذلك أبو الوليد بن رشد الحفيد شارح أرسطو بأمر من ذات الخليفة[3] مما يدل على النهضة المذكورة سلفا.

لقد ترافقت هذه النهضة العلمية في مختلف الفنون والآداب والعلوم الشرعية والطبيعية باهتمام بالغ من أجهزة الدولة بمسألة التعليم في مختلف أطواره الأدنى بإلزام الطلبة حفظ الضروري من المؤلفات المؤهلة للترقي في مناصب الدولة، والأعلى في المدارس الموحدية الخاصية التي أشرف عليها كبار العلماء[4]، بل إن العناية بلغت حد فرض البعثات العلمية إلى عاصمة الدولة للنهل من العلوم، وهي سياسة التي ابتدعها عبد المومن بن علي الذي كان يجمع الصبيان والأحداث من مختلف مدن العدوتين كما فعل بصبيان إشبيلية حيث قدم خمسون طالبا "وقوبلوا بإحسان والإنعام وإجراء الطرف والتحف ثلاثة أيام، ثم أمروا بكتاب التوحيد وحفظه، وكتاب موطأ الإمام مالك ومسلم وحفظهما، وأقاموا تحت جراية واسعة وجباية بالغة ستة أشهر، حتى بدأ عليهم نور الإمامة وامتازوا بالحفظ والكرامة"[5].

ولا غرابة في كل ما سبق فأوئل خلفاء الموحدين كانوا علماء ساروا على نهج الشريعة إذ أخذوا الناس بالعلم والعمل، ويكفي التذكير بأن يعقوب المنصور كان يؤم الناس في الخمس ويعزر على ترك الصلاة، ويشدد على انتهاك الحرمات حيث أنه ربما قتل على شرب الخمر.والشواهد على قيومية الدولة على التعليم لا تفي بها الصفحات.

خامسا: الميراث الحضاري ،وإنسان ما بعد الموحدين.

الميراث الموحدي، ما بعد الموحدين، أسباب فشل التجربة:

ما بعد الموحدين، هي الفاصلة بين عهدين، عهد حضارة الإنسان والقيم والعقل، وعهد الغريزة والتشيء والإنسان المنزوع إلى الصنمية والشيئية، والمشدود إلى الوهم والخرافة والمسكون بذهان السهولة والانسحابية.

ذلكم هو تقييم المفكر مالك بن نبي لخط الحضارة الإسلامية التي جاءها النزع الأخير معلنا مواتها بإشهار بلغ أسماع العالم كله عند سقوط عاصمة الشرق بغداد على يد التتارسنة(656هـ)، وسقوط مراكش عاصمة الغرب الإسلامي

---

[1] –ابن القاضي المكناسي: جذوة الاقتباس بمن حل من الأعلام بمدينة فاس.الرباط، دار المنصور،1973.ج2ص290.

[2] – احنانة يوسف: تطور المذهب الأشعري في المغرب الإسلامي.ص113.

[3] – المراكشي عبد الواحد: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص179.

[4] – المنوني: حضارة الموحدين ص19.

[5] –ابن القطان: نظم الجمان ص139.

سنة(667هـ).والتي انقسمت إلى دويلات ثلاث متناحرة هي الحفصية بتونس والزيانية بالجزائر والمرينية بالمغرب، والتي أكلتها الحروب الدائمة ، وعصفت بها النزاعات الأسرية، ثم أتت على أطرافها القوى الصليبية الصاعدة اسبانيا والبرتغال اللتين توجتا حروب الاسترداد بإسقاط غرناطة (1492 م)[1].ثم امتدت أيديهما لتقضما مدن السواحل المغربية واحدة بعد الأخرى.

فما هي أسباب فشل الموحدين وما هي مكامن الخلل في المشروع الحضاري للموحدين؟

بالضرب صفحا عن الأوضاع العامة للمغرب الإسلامي والتي ناءت بأثقال القرون السالفة، فإنه يجدر بنا تلمس مكامن الخلل في البنية الاجتماعية التي لم تتهيأ للتخلي عن مخيالها القبلي وميراثها الفكري الذي يتصادم وغايات المشروع الموحدي من جهة أولى، ومن جهة أخرى في الخيانة الفكرية للمشروع في المرحلة الثانية من الدولة، دون إغفال القصور في ذات المشروع نفسه، والذي هو تجربة فريدة حملت نجاحاتها ردحا من الزمن نعم فيه الإنسان بالأمن فعاد بالعطاء وبعدما كانت تتخطفه المجاعات والحروب والأوبئة وانقطاع السبل: "فكانت الظغينة تخرج من نوال لمطة – أقصى السوس- وتنتهي إلى برقة –أقصى ليبيا – وحدها لا ترى من يعرض لها ولا من يكلمها."[2]

يمكن القول توسلا بتقييم ابن نبي لحالة الإنسان بين مرحلة الحضارة وأذيال الحضارة إلى جملة عوامل تجسدت في ظواهر سياسية واجتماعية قادت إلى انقطاع المشروع ومنها:

– عودة العصبة القاتلة: التي لم تستطع الأدبيات الموحدية محوها، لكونها قوام المجتمع المغربي، ولأن الدعوة قامت على أكتاف المصامدة مما جعلهم يستأثرون بمناصب الإدارة غالبا، ولأن المجالس الشورية (السبعين والخمسين) كانت لهم، ثم نافسهم الكوميون قبيلة عبد المؤمن بن علي.

عندما بدأت نذر الضعف تسري في أواخر الدولة عقب هزيمة العقاب القاسية أمام الصليبيين في إسبانيا (1212م) بدأت العصبيات المناوئة في التحرك وكان الإجهاز على الدولة من بني مرين الزناتيين، وقبلهم بنو عبد الواد الذين استطاعوا قتل الخليفة السعيد الموحدي[3].

–معضلة الوراثة: فرغم أن الدولة في تأسيسها كانت بدعا في انتقال الحكم من المهدي المصمودي إلى عبد المومن الكومي باختيار مجلس العشرة من أشياخ الموحدين، وهي لحظة نادرة في التاريخ الإسلامي.إلا أن نمط الوراثة سرعان ما ناء بكلكله على أسرة عبد المؤمن التي توارث أبناؤها الحكم مخالفين النمط الذي وضعه المهدي في شورية الحكم وتداولية القرار في المجالس العليا. ولم يكن كل الخلفاء في مستوى الأوائل، وبغياب آلية موحدة لانتقال السلطة آلت الأمور إلى غير أهلها فكان النزاع ثم الانهيار.

---

[1] – بشتاوي سعيد: الأمة الأندلسية الشهيدة،ط1،بيروت،المؤسسة العربية للدراسات والنشر،2000.ص119.

[2] – ابن أبي زرع:روض القرطاس ص286/السلاوي: الاستقصا ج1ص321.

[3] –تاريخ ابن خلدون ج6ص306/ ابن أبي زرع: روض القرطاس ص338.

-حداثة التجربة التي لم تصمد سوى مائة عام في توحيد المغرب والأندلس وهو ما لم يترافق بجهد فكري علمي تربوي يرفع الأفق السياسي لساكنة المغرب، حيث انصبت جهود الفقهاء في مطاولة المشاريع الموحدية لتحييد فقه الفروع مما أدخلهم في صراعات عديدة لم تعد بكثير نفع على ذات المشروع.

-الإرث الطوائفي في الأندلس كان له دوره في تعويق المشروع حيث خاض الموحدون صراعا كبيرا مع بقايا الطوائف ومع المتمردين أمثال ابن مردنيش[1] وبني غانية بقايا المرابطين والذين استعادوا التجربة المقيتة في الاستظهار بالأسبان، والإرث الطوائفي كثيرة أثقاله الضاربة في التاريخ من عهد الفتنة البربرية التي عصفت بالخلافة الأموية[2].

إن انهيار الدولة الموحدية وانقطاع مشروعها الثقافي على ما فية من تعلات وثغرات قد أعاد المغرب إلى عهود التطاحن والنزاع في السياسة، وإلى عهود البداوة وانتقاص العمران في المدنية، فكان الإنسان السليب المرتهن الإرادة الذي سماه ابن نبي بإنسان مابعد الموحدين والذي تميز بكونه:

*أسير غريزته التي طوحت بالفكر والعلم، فأحلت محلها عبادة العصبية والانتصار للقبلة والتطاحن على مورد الماء، ويكفي التذكير بنوازل الفقهاء في الغارات وقطع الطريق وانتهاك السبل حتى أفتى البعض بسقوط فريضة الحج.

*أسير ذهان السهولة: والاكتفاء بالمعاش الضروري لأن الحاجي والتحسيني قد تذهب به ضرائب الدولة المفككة الناهبة لجيوب الناس لتحصين أسوارها وتجهيز جيوشها لصد عدوان جيرانها.

*أسير الخوف والرهاب: لانتقاص الأمن وكثرة الحروب التي ذهبت بالدول الثلاث، ويكفي الاستشهاد لذلك بحصار المرينيين لتلمسان والذي دام ثماني سنوات أكل فيها الناس الجيف والقطط والفئران والأفاعي[3].

*أسير الخرافة: إذ أنه بعد زوال السلطة الواحدة وانهدام حصن الاجتهاد لاذ الناس بالتصوف الذي شكل شيوخه دولا بديلة للدويلات الصغيرة، ولم يكن الكل سواء في العلم والتربية، فتوارث المشيخة من ليس لها. فتناسلت الطرق الصوفية التي تفرق أشياخها قددا، والتي ابتعد كثير منها بالإنسان عن صناعة الحضارة إلى الانكفاء والانزواء عن متاعب الدنيا وملاعب السياسة، وصحيح أن جزءا مهما منها قاد حركة المقاومة ضد الأسبان (فتح وهران مثلا) ومقاومة المستعمر الفرنسي، ولكن ذلك التصوف التربوي كان على حساب عمارة الدنيا. إذ أن إرثها الثقافي القائم على التسليم والطاعة التامة، والإيغال في الغيبيات والكرامات، أخرج إنسانا متوجسا خيفة من كل جديد. فلما كانت الصدمة الحضارية الغربية استخفت بعقول الكثيرين الذين لم يجدوا في المنظومة الصوفية حصانة لهم أمام الوافد الغربي الجديد.

إن المأساة الكبرى في عالم ما بعد الموحدين هي مأساة الثقافة أي السلوك الفردي والجمعي تجاه المتغيرات الاجتماعية والروافد العلمية، فبعد طفرة الاجتهاد والانفتاح على العقليات والعلميات عاد العقل المسلم ليتكلس من جديد، وتغور مياهه وتنضب عيونه فشاع ما يلي:

---

[1] -انظر: هشام أبو رميلة: علاقات الموحدين بالممالك النصرانية والدول الإسلامية بالأندلس.ط1،عمان،دار الفرقان،1984.ص107.

[2] -في الفتنة البربرية انظر ابن عذاري :البيان المغرب ج3ص103/عبد القادر بوباية: البربر في الأندلس.ط1،بيروت،دار الكتب العلمية،2011.ص305.

[3] -تاريخ ابن خلدون ج7ص113.

* التجزيئية التي طغت على المعارف فكان الفراق البين بين علماء الظاهر الشريعة، وعلماء الباطن التصوف، وبين ملوك الوقت – السلط السياسية، وملوك الروح – مملكة الأقطاب، وشغل العقل الفقهي باسترداد المعارك الأولى في هذا المجال، ومن جهة أخرى أنزوت المعارف الطبيعية فلم نعرف طبيبا أو فلكيا أو رياضيا في عالم ما بعد الموحدين في حين كانت الطفرة والنهضة الحضارية الصاعدة في أوروبا الحديثة.

* التقليدية: حيث عاد العقل الفقهي إلى المتون والمختصرات والمعتصرات، وجل ما أنتج كان شروحا وحواشي لم تفد إلا في حفظ التراث المالكي، أما الاجتهاد المرتبط بالأصول الأولى فانعدم كلية، وهو ما جعل الألق الحضاري الذي كان في عهد الموحدين ينحدر إلى الدركات، فرتابة الحياة وبداوة العمران وقبلية الاجتماع كلها عوامل لم تسعف العقل ليقوم من كبوته.

إن المنحنى الحضاري الذي سجل ألقا وارتفاعا كبيرا زمن الموحدين سرعان ما تهاوى بذهاب دولتهم وضمور مشروعهم الذي تجسد في وحدة المغارب والأندلس، وصحيح أن المشروع كان قاصرا في مناحي عديدة إلا أنه مقارنة بمعاصريه وسابقيه كان بدعة ، وبدعته في إعادة الاعتبار للعقل والاجتهاد، وإحلاله للأمن والسلم والوحدة كعوامل فاعلة في الرفاه الاقتصادي والسلم الاجتماعي، وهو ما تحتاجه النهضة الإسلامية المعاصرة وهي تتغيا أهدافها التي لا بد أن ترتقي سلم الحرية والعدالة والتنمية لتكون الأمة جديرة بأنها خير أمة أخرجت للناس، وبأنها حقيقة بأن ترث الأرض، فالأرض يرثها العباد الصالحون، الصالحون في شعائرهم ومناسكهم، وكذا في عمارتهم ومدينتهم، فالصلاح كل لا يتجزأ، والقاصر في الدنيا قاصر في الآخرة والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من الضعيف.